

كرة القدم وكرة الرأس

صلاح شوان

كوردتاييس - 2006/6/24

كلما سمعت عن لعبة كرة القدم او شاهدها بالصدفة حين الانتقال بين القنوات، تذكرت قول صديقي المفكر: (مالذي يدفع بهؤلاء الرجال الذين يفترض انهم ناضجو العقل، ليطاردوا كلهم كرة بحجم رأس واحد منهم، بهذه الطريقة الغبية المضحكة؟!) وربما توصلت اخيرا وبعد سنين طوال الى جواب بسيط هو: (ان الانسان مازال بعيد كل البعد عن النضوج، ليتصرف بهذه الطريقة الصبيانية المخجلة). فانتشار كرة القدم لا يدل الا على هذه الحقيقة، رب من قائل ان لعبة كرة القدم افضل من لعبة الحرب او الالعاب البهلوانية الاستشهادية او الكثير غيرها من الالعاب المضرة، ربما، لكن ذلك لا ينفي الغباء المتبقي في تصرفات الانسان المسمى (متحضر)أ، ويحضرني هنا مثلا: ان رجلا ذهب الى الملك يعرض عليه مهارته طمعا في بعض المال مكافأة، فبعدها مثل بين يدي الملك، اخرج من جيبه حزمة من الابر، فرمى احداها فانغرزت في الارض، ثم رمى اخرى فأدخلها في ثقب الاولى، ثم رمى الثالثة فأدخلها في ثقب الثانية، وهكذا حتى نفذت حزمته من الابر، فقدم تحيته للملك منتظرا، فأمر الملك بإعطائه مائة دينار وجلده مائة جلدة، فسأله بعض حاشيته عن سبب هذا وذاك، فأجاب: المائة دينار لانه اكتسب مهارة فائقة بجهد كبير لا احد بمقدوره منافسته عليها، والمائة جلدة لانه صرف كل تلك الجهد والخبرة والوقت في شئ تافه لا يضر ولا ينفع.

قد يطول النقاش ويتفرع اذا اردنا الغوص في التفاصيل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والفلسفية وغيرها لمثل هذه العادات السخيفة للانسان حتى اليوم، ولست اروم هنا ان اصرف جهدا كبيرا في موضوع تافه كهذا رغم المامي بجوانب عديدة منها، لكنني ساختصر الطرح على مرتكزات اساسية لتوضيح رؤيتي:

فإذا اسلمنا ان الانسان مخلوق اعتباطي لا حكمة او رؤية او طائل وراء خلقه، فان لعبة كرة القدم ستكون جزء من تلك الحالة، وتكون مبررة لانها تستمد تفاهتها من تفاهة وجود الانسان نفسه، لكن الانسان حيوان مفكر حسب تقديري وكما يؤكد الفيلسوف الوجودي الفرنسي العظيم (جان بول سارتر)، ان التفكير هو وحده الذي يفرق الانسان عن باقي الكائنات الاخرى، وليس هو بحيوان ناطق كما تعتقد العرب، لان التفكير هو الذي ادى ويؤدي الى ابتكار اللغة، فالانسان او الحيوان او الكائن الحي الذي لا يفكر، لا حاجة له الى اللغة، ولن يستعملها حتى لو امتلكها، لكن (العرب ظاهرة صوتية) كما يؤكد المفكر السعودي (عبدالله القصيمي)، لذا تعتقد ان الصوت اهم من التفكير، وكذلك اخطأ كاتب القرآن بقوله ان الله يحتاج الى اللغة العربية ليجسد ارادته بقوله: (كن فيكون)، وهي مقتبسة من الآية الانجيلية الخاطئة (في البدء كانت الكلمة)، لان الله لا حاجة له ليتحدث الى نفسه كالمعتوهين ليخلق شيا، فيكفيه ان يفكر فيه فيخلق، كما يصنع اي صانع او مخترع اي مخترع او يكتشف مكتشف شيئا، فلا احد منهم يقول نفسه سأصنع او اخترع او اكتشف حتى يفعل، فهذه الطريقة التي يسبق احدهم فعله بالقول، انما هو تصرف طفولي يعتمد على الاطفال البسطاء السذج.

لنعد الى كرة القدم كجزء من الرياضة، وقد سبق لي ان اتهممت ابا الفلاسفة افلاطون بالغباء بسبب طرده للشعراء من جمهوريته الخيالية، بينما خصص مكانة معتبرة للرياضيين! والغريب في ذلك ان افلاطون رغم ضخامته وعرض منكيه، لم يشغل بالرياضة، بل اشتغل بالكتابة مثل الشعراء وغيرهم من الكتاب، ومع ذلك فضل الرياضيين على الشعراء! وهذا في حد ذاته خلل في التفكير وتناقض بين القول والفعل لا يليق بفيلسوف، لكننا لو دققنا النظر في امره لعرفنا السبب، و(اذا عرف السبب بطل العجب)، لم تكن الفلسفة معروفة بالطريقة التي تناولها افلاطون بالنثر والنصوص الفكرية المباشرة، بل كانت تضمن في ابیات من الشعر وفي سياقات شعرية، وافلاطون لم يكن شاعرا ولا بقادر على صياغة افكاره في قوالب شعرية، وغيرته من الشعراء هي الدافع الاول والاخير لنبذ الشعر وطرده الشعراء من جمهوريته، حاله في ذلك كحال كاتب القرآن بالتمام والكمال، فالكتب المقدسة الدينية القديمة كانت مصاغة في قوالب شعرية، ككتاب زرادشت وكتاب ابراهيم (براهما) ومزامير داود، وكان الشعراء هم الحكماء المقدسون الذين ينطقون بلسان الله كلاما سماويا لا قدرة للبشر العاديين على النطق به، ولم يكن بإمكان غير الشعراء ادعاء النبوة دون تحطيم هذه الفكرة السائدة، فتحطيم الشعر وتحطيم الاصنام في الكعبة التي كانت مقدسة بسبب تلك الاصنام من قبل محمد، وتحطيم الافكار والمعتقدات المقدسة السابقة، كلها كانت وماتزال جزء من التهنية للدين او الفكر او الايديولوجية او نظام الحكم الجديد، وهكذا حاول الفيلسوف كارل ماركس ان يفعل بنبذه الاديان في قوله: (الدين افيون الشعوب) كتمهيد لاقامة دين جديد من نوع آخر، وهذه الممارسة جزء ابدى من صراع الجديد مع القديم، فحتى الشعراء انفسهم يلجؤون اليها لتأسيس اساليبهم الجديدة والتقدم الى الاحداث والافضل، وهو جزء من قانون التغيير المستمر، لان الاصلاح والترقيع لا تفيد الى الابد، ولا بد من تحطيم القديم واحلال جديد محلها بعد ان يتجاوزها الزمن، وتشكل مثل هذه المراحل الثورية بؤرا مضيئة في تاريخ البشرية، لان اي شئ لو استمر

اطول من زمنه فسد واصبح عانقا امام الانسان، كما هو حال الاسلام اليوم، الذي يشهد صراعا محتدما بين محطيه المجددين وتجاوزه الى الافضل والاحدث والاصح للزمن الحديث من جانب، وبين المتشبهين من الجانب الاخر بالماضي الذي اصبح فاسدا ومتهرا وعانقا لا بد من تحطيمه واقامة جديد ملائم معاصر محله، بعد ان استنفد كل الاصلاحات والتصلحات والترقيعات الممكنة خلال 14 قرنا خلت. لكن الجديد يحتاج الى عقول جديدة لاستيعابه وتأسيسه، وهذا ما تنقصه الشعوب الاسلامية لحد اليوم، في حين استطاعت الشعوب الغربية ومنذ اكثر من مائتي عام تجاوز مرحلة دينهم المسيحي والانتقال الى افكار وفلسفات ومعتقدات وانظمة اجتماعية واقتصادية وسياسية تتسجم مع تطورهم العقلي الطبيعي، بينما الشعوب الاسلامية ماتزال تعيش في اغتراب وانفصال وانفصام عن العصر الذي وضعتهم الثورة الصناعية والتكنولوجية الغربية فيه رغما عنهم، فمنهم من ينصاع لاراديا ولا واعيا ولا راعبا للقدام الجديد الافضل الاصلاح، ومنهم من يحاول مقاومتها بشتى الطرق، ومنهم من ينتحر متوهما انه بموته يدمر الجديد مع تدمير نفسه التي لاتستطيع الفكك عن القديم الذي تتشبث به وما بدلوا تبديلا.

كرة اخرى لنعد الى كرة القدم كلعبة للكبار المفترض بهم انهم ناضجون او عقلاء، لانها لغير الناضجين لاضرير منها كالكثير من الامور الاخرى، فلعبة كرة القدم من الناحية الاجتماعية التي يؤكد الكثيرون على انها لعبة انسانية تنشر المحبة والتفاهم بين الناس والشعوب، كما اكد السيد العاقل كوفي عنان الامين العام لمنظمة الامم المتحدة يوم امس، لهي محض هراء، لانها تفرق ولا توحد، وليست المشاغبات والاشتباكات السخيفة بين الجماهير الا تعبيراً بسيطاً عن خلق التناقض بين الناس الذين ربما يتفاهمون ويحبون بعضهم بعضاً في مهرجان موسيقي او فني او علمي او غيرها بدل ركل بعضهم البعض عند تشجيع كل طرف لفريقه، وكانت الصراعات القديمة بين مشجعي فرقي الاهلي الزمالك المصريين قد شقت المصريين الاغبياء اى مجتمعين اضافة الى الفروق الاخرى، الدينية والساسية والطبقية والمناطقية وغيرها، وهي كذلك في كل مكان حتى اليوم، وهذه النقيصة مجسدة ايضا في القرآن بالنص القائل: (وخلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا - او الاصح لتتعارفوا)، وهذا القول اشبه بان تقول لشخصين: (جعلتكما تتقاتلان حتى تتصالحا بعد ذلك) في حين من الافضل ان لا يحدث القتال اصلا، كما كان الاولى بالله ان يخلق الناس شعبا واحدا وقبيلة واحدة فلا يحتاجون الى التعارف اصلا، ان كان الله قادرا على ذلك، او ان كان القول ذلك لله اصلا وليس كلاما للضحك على ذقون المغفلين. فمنطق القرآن هو نفس منطق السيد كوفي عنان المذكور آنفا، وكلاهما يفسران الموجود تفسيراً منمقا دبلوماسياً، ولا يمتان الى الفهم الصحيح والعميق للحقيقة بصلة.

فالاساس الاجتماعي للعبة كرة القدم منفي وسلبي، وليس ايجابيا او مؤنسنا كالاكتشافات والاختراعات العلمية مثلا التي تخدم البشرية في صحته ومعيشته ورفاهيته وراحته وسعادته، بل هي سبب مضاف الى تفريق وتقسيم الناس وزرع الكراهية والتضاد بينهم.

ومن الناحية النفسية قد تطول التفاسير اكثر من غيرها، لكن التوتر التي تحدثه اللعبة لا يحتاج الى الكثير من الفهم او العقل لادراكه، وحوادث رمي احدهم زوجته من نافذة شقتهم لانها شوشت عليه متابعة للعبة، او خنق احدهم طفله لاسكاته لبتابع اللعبة من على الراديو او التلفزيون، او غيرها من التصرفات الوحشية مجرد ادلة على مساوئ اللعبة من الناحية النفسية على مدمنيها، وارتفاع حمى اللعبة نفسها بين الناس لا تقل عن جنون اي حرب تقع بين جيشين او اكثر، وهي تترك اثارا همجية ليست يسيرة على المتأثرين بها، وهي اضافة الى كل ذلك استغلال سخيف لمجاميع كبيرة من الناس واشغالهم بشئ لا تختلف عن براعة لاعب الابر المذكور آنفا.

ومن الناحية الاقتصادية تعتبر اللعبة مجالا جيدا جدا لاستغلال المشاهدين الكرام المعتهين واستحصا المبالغ الطائلة منهم ومن رزق عوائلهم لصالح شركات واشخاص معدودين يصحون من اغنى الاثرياء، ليس لسبب الا لانهم يستخدمون اقدمهم في ركل كرة بحجم رؤوسهم الخاوية الا من الفراغ والهواء ككراتهم، واكثرهم من المنحرفين اخلاقيا واجتماعيا وسلوكيا ولا يتصفون بالشيم الانسانية النبيلة، والمتعة التي يحصل عليها المشاهدون المغفلون المدمنون ليست بالضرورة مضمونة، فمشجعوا الفرق الخاسرة التي تسبب في ملء قلوب الاغبياء حسرة وغيضا وحقدا على الآخر، هم ايضا يدفعون مالا للحصول على كل ذلك الاحاسيس الخائبة القبيحة.

والعقل السليم قلما يسكن الجسم السليم، فأجساد العقلاء في الاغلب عليلة وهزيلة، وعقول الاقوياء الاصحاء في الاغلب صغيرة وغيبية، فلو كانت المقولة المذكورة صحيحة، لكان الحصان هو الذي اخترع الكهرباء وكان مكتشفوا الادوية التي انقذت وتفقذ الملايين من الموت والالام والامراض كانوا اما قبيلة او حميرا او اسودا او ماشابهها، وكان محمد علي كلاي او بيليه او مارادونا هم مخترعوا الكمبيوتر او التلفزيون، بينما نرى ان عبقريا عظيما مثل هوبكنغ صاحب العقل الجبار النفاذ الذي يضيف كل يوم معرفة اونظرية او اكتشافا جديدا في علوم الفضاء والكون والوجود، هو رجل مقعد مشلول الجسم كسيح لايتحرك فيه عضو من جسمه حتى لسانه، ويتحرك على عربة! وهوبكنغ مجرد مثال اكثر سطوعا من غيره من الامثلة، والا فان كل العلماء والمكتشفين والمخترعين والعظماء كانوا ومايزالون يعانون من مشاكل جسمية، والعكس بالعكس... وان

الجسم السليم ليس بالضرورة افضل اليوم، فالقوة الجسدية لم تعد تعني شينا مقابل القوة العقلية، فالالات والادوات التي تصنعها العقول السليمة، قادرة على التفوق على الاجسام السليمة وهي اكثر نفعا وجدوى للبشرية من الاجسام السليمة.

وبهذا تسقط الفائدة الجسدية من الرياضة بشكل عام، ومن لعبة كرة القدم التي نحن هنا بصددها، وهي تستهلك وقتا يمكن للعقل ان ينجزوا بها اعمالا جبارا لفائدة الانسان فردا وجماعة، وقد ما يكون الرياضيون طفيليين على البشرية واستهلاكيون في استهلاك منجزات العقل، قدر ذلك واكثر بعشرات المرات يكون المعجبون بهم من الجمهور الاغبياء، وفي انتظار ان يتجاوز الانسان هذه العادات الصبيانية التي هي من مواريث ازمان قديمة سخيفة، ليس لنا الا الاستدراك، وكل تغيير تأتي من فكرة صغيرة تكبر حتى تصبح كاملة شاملة.